

الشيخ عثمان

متولى

قصة سرانية

بقلم: السيد على كراس

فى فمه • واخذ حجرا ورمى به الشعبان •
ولكن الشعبان لم يقع ، وارسل آخر
وثالث • وفجأة توقف • ماذا يقول عنك
الناس عندما يرونك يا عثمان • وانت
رجل كبير ينادونك بشيخ عثمان •

كان عثمان اكبر اولاد أبيه • وعندما
توفى والده فى السنة الماضية بقى هو
المسئول عن الساقية والحمار والبقرتين •
وكبر فى عيون الناس • ومن ثم بدأوا
ينادونه بشيخ عثمان • وكانت أقواله
وحركاته وسكناته تقول انه فى سن
العشرة أو أكثر وليس الثالثة عشرة •
يقوم فى الصباح ليوذى الصلاة ، وبعد
ذلك يتحرك الى الساقية ، ويحرق فيها
حتى ياتيه البقية من الرجال • كان
يوذى عمله فى نشاط واحساس عميق
بالمسؤولية التى تتمثل فى أمة آمنة
واخته سعيدة وأخيه الصغير علوبى •
كبر فى نظر أمه وأخته وأخيه الصغير
الذى كان يناديه - بابا - •

توقف عثمان عن رمى الحجارة ،
وتلفت حوالبه وعلى شفثيه ابتسامة ••
فلم يره أحد • ودخل المراح ، وصار
يربت على ظهر احدى بقرتيه بعد أن أله
بالشرك فى ركن من أركان المراح •
بدأ يللمم بقايا سيقان الذئ

عمره ثلاث عشرة سنة •• قمحى
اللون ، قصير القامة على وجهه تجميدات
خفيفة خطت برفق •• رأسه مستطيل •
فى عينيه عمق غريب • كان يسير وكان
الدنيا كلها تحت قدميه ، يرفع رأسه
عاليا كأنه يريد أن يعانق السماء •
أدار جسده ناحية اليمين ، وتوقف
فجأة ثم أحنى ظهره بصعوبة ليلتقط من
الأرض شركا كان قد نصبه فى عصر
الامس • الشرك لم يكن فى محله ••
يلتصق به ريش قمريه •• وارتسمت
على شفثيه بسمة المראה والياس •
وبلامبالاة ألقى بالريش فى الفضاء
فاخذت نسمة الصباح معها الريش •
جلس عثمان فى مكانه يحدق فى الأرض
يبحث عن أثر •• أى أثر •• أقدام
حمار •• بقرة •• ماعز •• ولكنها كلها
لا تهتم بشركه • ووجده اثر شعبان كبير
وتبعه وقد نوى شيئا • انه الشعبان ••
هو الذى أخذ قمريته • وتبع الاثر الذى
يتلوى فى الزقاق الذى يشق أخواض
الهامية • وتوقف تحت نخلة القرقودة ••
ينظر فى جذعها فلم - يجده • وابتدا
يدور تحت النخلة ولكن بدا له ان
الشعبان لم يفارقها على الإطلاق • ونظر
الى أعلى فرائى عدوه الشعبان يلتف بحسده
حول جريدة من جرائد النخلة والقمرية

أحضرها بالامس عشاء لبقرتيه ، وكومها
فى داخل المراح ، وبعد ذلك بدأ يجمع
بعر البقرة الصغيرة ليزيحها عن طريقه .
وابتدا يفرش البعر تحت الشمس .
والقى بنظرة الى الجعرانة التى كانت
تدحرج كرة من البعر . ووقف يمط
جسده فى الفضاء كأنه يريد أن يعانق
السماء .

كانت أخته سعيدة التى تبلغ من
العمر الخامسة عشرة تسير نحوه ،
وقالت وهى تضع البعر الناشف فى قفة
تحملها - عثمان سقيت الحمار . وتوجه
وهو يمد اصبعه نحوها يحذرهما قائلا :

أوعك تشيل قصبه واحدة من المراح .
القصب دا دايرين نخلى للبقر فى
الشتا .

واجابته بأنها تعرف ذلك . توجه
عثمان الى مربوط حماره خلف المراح ،
وركبه وتوجه الى النهر . كان يبدو على
الحمار انه لم ير الماء منذ أيام مما جعله
يخوض فيه حتى وصلت المياه الى بطنه .

فى تلك اللحظة كانت أسراب من الفتيات
يحملن الصفايح الفارغة ليملأنها من
النهر . وتوقفن عندما رأين عثمان
يفسل ظهر حماره وهن يهمن لبعضهن
بصوت خافت ، وعلى وجوههن فرحة
طاغية . . كان فى نظرهن كبيرا . .

كبيرا وعاقلا . وحدث فيهن عثمان ثم عاد
يفسل ظهر حماره . وتقدمت الفتيات
وهن يشمرن ما عليهن من ثياب الى النهر
ليملأن الصفايح . عاد بحماره الى المراح ،
وهناك وجد أمه آمنة قد عادت من
الجزيرة بعد أن أحضرت كمية من
النخيلة لغذاء البقرتين . وكان يبدو
عليها التعب والارهاق ووجهها يتم عن
تعبير مخلوط بالفرح والحزن . شعيرات

بيضاء متطفلة بدأت تتسرب داخل
شعرها قبل أوانها . ورفعت رأسها فى
اعياء شديد تنظر الى ابنها كأنها لا ترى
رأسه . . خيل لها أنه أطول من كل
شئ . وتقدم هو منها وطبع على جبهتها
المكسوة بالتراب قبلة حارة جعلت
الصفاء يرجع الى وجه الام الكثيب .
وانفرجت شفتاها عندما بدأ عثمان
ينفض عن قميصها بقايا النخيلة التى
علقت به . ونهضت واقفة لتضمه بقوة
كأنها تريد أن يدخل فيها مرة أخرى .
وتقدمت منها سعيدة التى كانت تحمل
على رأسها وتضع تحت إبطها حزمة من
جريد النخل الجاف . جلست بالقرب
من أمها ، وأخذ عثمان يفرغ النخيلة
والبقرتان تلتهمانها فى سرعة . . وضرب
عثمان إحدى البقرتين لتفسيح له الطريق ،
وأخذ ما بقى من النخيلة وأفرغه أمام
حماره الذى كان يفتح فمه يستعد
للنهيق ، ولكنه بلغ صوته عندما رأى
الخضرة أمام عينيه .

طلبت آمنة من ابنها أن يذهب معها
للبيت الا أنه اعتذر بأنه يريد أن يرى
الاحواض التى سوف تسقى بالليل .
وتوجهت آمنة وسعيدة الى الحملة عندما
أخذ عثمان شركه وكأنه يسرقه . فقد
دخل المراح مرة أخرى ببطء وهو ينظر
الى والدته وأخته .

ذهب عثمان الى شجرة الطلح التى
وجد تحتها دروبا كثيرة للزراير
والقمارى . وهناك نصب شركه ورجع
قافلا للبيت . وفى الطريق أحس بشوق
وبتطلع نحو الغد ، الذرة قرب أن ينضج ،
وشركه سوف يقبض له زرزورا او
قمرية . . وأخته سوف يزفونها بعد
حصاد الذرة . . لوازم العرس جاهزة

البامية الناشفة كثيرة .. وأعواد
الملوخية طالت .. والريححة والحنة
والمحلب والصندل اشترتها والدته من
- الحلبية كل شيء جاهز وابتدأ يغنى
- الله ليل ياليل - . فى الخور الذى
يقع جنوب الحلة كانت ليلى تحمل
صفحة مليئة بالماء .. وتوقف عن
الغناء . وحقق فيها : المياه تسيل على
خديها .. شعرها مبلول .. وقالت له
وهى تمسح المياه من عينيها .

- عفنت البحر بوسخ حمارك .

ولم يجبهها فقط دندن - الله ليل
ياليل . وتذكر فجأة ما كانت تقول له
أمه بالأمس بعد أن تناولوا طعام العشاء .
قالت له أمه :

- حترس ليلى والله فاطمة ولا عاشه
ياعثمان ؟

ولم يجبهها ساعتها .. ولم يصدق إنه
وصل بعد مرحلة الزواج .. الله ياشيخ
عثمان .. انت كبير .. كبير وكل
الناس يحترمونك لماذا لا تتزوج ؟ ودخل
البيت . مكون من ثلاث حجرات مبنية
من الجالوص . البوابة الرئيسية تهدمت
جوانبها وشعر عثمان بكآبه وضيق ..
يجب أن يبنى هذه البوابة ، ويغير
السقف من القصب الى الجريد ..
ودخل على أمه ، ورائحة البامية التى
لم تنضج بعد تقابله فى بوابة المطبخ
وجلس بقربها وأمّه تعوس بينهما كانت
سعيدة تفرك البامية بقطعة خشب .
وسأل عن أخيه الصغير الذى كان يغط
فى نوم عميق . ثم خرج بعد أن أخذ
قطعة من الكابيدة التى كانت ترقد على
طبق الدوم . توقف خلف البوابة
الكبيرة ، وقبل أن يخرج التهم قطعة

الكابيدة .. وتوجه الى مراح إبقاره .
أطلق حماره بعد أن وضع عليه جوال
التراب ، وذهب الى الخور الذى يقسع
جنوب الحلة ، وهناك فى حجرة جانبية
بدأ عثمان يعبى الجوال بالطين . وأفرغ
الجوال أمام البوابة الكبيرة ، وربط
حماره خلف المنزل ، ودخل على أمه
وأخته اللتين كانتا قد بدأتا فى تناول
الطعام . وجلس بعد أن غسل يديه من
التراب ياكل معهن ، ثم قال لاخته
سعيدة .

- الضهر املى صفيحتين موية عثمان
عاوزين نصلح البوابة .
- حاضر .

تمدد عثمان على فرش مفروش على
الارض ، وغط فى نوم عميق . وأيقظته
أخته وهى تقول له لقد أحضرت المساء
وبللت الطين . فارتسمت على شفتيه
ابتسامة عريضة وخرج وهو يتشاب .
وكانت فى عينيه بقية نوم تخلص منها
عندما غسل وجهه . وجد أمه تعجن فى
الطين ، فاحضر طشتا ووقف فوقه
وابتدأ البناء نزل من ظهر الطشت بعد
أن أتم بناء الامكنة المتهدمة ، ووقف
ينظر اليها . ثم مال بجسده يغسل
يديه من بقايا الطين . بعد ذلك ركب
حماره وذهب الى الساقية . فأخذ احدى
بقرتيه وأخذ أخرى من مراح عم عبد الله
وتوجه الى الساقية . نظر الى البشر
ليتاكد من وجود كل « القواديس » ثم
ركب على « التكم » وارتفع صوت الساقية
عاليا جعل زوجة عم عبد الله توقظه من
نومه . كان عثمان يغنى « الله ليل ياليل »
ثم يتبعها فى حين لآخر بقراءة فى المواد
الشريف .